وقائع وأحداث سبقت هجرة الرسول ﷺ

إنَّ الحديثَ عن المدينة المُنَوَّرَة يَستَوجِبُ الحديثَ عما سبقها من دَعوة الرسول ﷺ وبَيَان مَن استَجَابَ لَهُ من عباد الله، ومَا جَرَى لهم، ومَا وقَعَ بهم قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بإذْن رَبِّه.

فإنَّ الحديثَ عن المدينة المُنَوَّرَة يرتبط - كلَّ الارتباط - بمَكَّة المُكَرَّمة ومَا وقَعَ فيها، ولا يَنفَصِلُ عنهُ.

ذلك أنَّ الذين آمنوا بالله ورسوله، واستجابوا لما يطلُبُه إيمانُهم من إخلاصٍ وصِدْق، وصبروا وصَابَروا، وأخضعوا كلَّ شيءٍ من أَمْرهم لمرضَاة ربِّهم، هم الذين أُمروا بالهجرة بعد أنْ أُعِدَّت نفوسُهم إعدادَ مَنْ يحمل دعوةَ الحق للعالمين.

وهم الذين عُرفوا بما سمَّاهم به القرآنُ الكريمُ «المهاجرين» وقد وصَفَهُم الله بما هم أهْلٌ له، وقدَّمَهُم - في ذِكْرهم - على من آمن بإيمانهم من الأنْصَار في آيتين كريمتين من آيات القرآن الكريم، يُعْرَفُ بهما ما للمهاجرين والأنْصَار من ذِكْرٍ وفَضْلٍ، يبْقَى ويُتلَى في آيات بيِّنَاتٍ في الذكر الحكيم؛ لتكونَ للناس فيهم قُدوة حَسَنَة إلى يوم الدين.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

---

(١) الحشر: ٨، ٩.

السابقون الأوَّلون إلى الإيمان:

أرْسَلَ الله تعالى خاتَمَ أنبيائه ورُسُله ﷺ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأمره أن يجهر بدعوته، قائلاً له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(١).

فاستجاب الرسول ﷺ لأمر ربِّه، فصَدَعَ بدعوة الحق دُون أنْ تأْخُذَهُ في الله لَوْمَةُ لائم، ودعا إلى الله الصغيرَ والكبيرَ، والحرَّ والعَبْدَ، والذَّكَرَ والأُنثى، والأَحْمَرَ والأَسْوَدَ، والجنَّ والإنْسَ(٢).

فرمته العرب عن قَوْسٍ واحدة، وشَمَّروا له ولأصحابه عن سَاقِ العداوة والمحُاربة، وصاحوا بهم من كُلِّ جانب، والله - سبحانه - يأمرهم بالصَبْر والعفو والصفح.

عن جابر رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ لَبِثَ بمكة عشرَ سنين يتَّبعُ الناسَ في منازلهم، في المواسم، ومجنَّة وعُكاظ(٣) يقول: مَنْ يُؤويني مَنْ يَنْصُرني حتَّى أبَلِّغَ رسالة ربِّي وله الجنَّةُ؟ فلا يجدُ أحداً ينْصُرُه ولا يُؤْويه، حتَّى إنَّ الرجلَ ليَرْحَلُ من مُضَر أو اليمن إلى ذِي رَحِمِهِ، فيأتيه قومُه، فيقولون له: احْذَرْ غُلامَ قريشٍ لا يَفْتِنْكَ(٤).

فاستجابَ له من استجابَ من عباد الله.

* وكان حائز قَصَب السَّبْق صدِّيقُ هذه الأُمَّة، وأسبقُها إلى الإسلام، أبو بكر رضي الله عنه فآزره في دين الله، ودعا معه إلى الله على بَصيرةٍ، فاستجاب لأبي بكر رضي الله عنه: عثمانُ بن عفان، وطلحةُ بن عبيد الله، وسعدُ بن أبي وقَّاص.

---

(١) الحجر: ٩٤ .

(٢) استمرت الدعوة السِّرية ثلاث سنوات، كان رسول الله ﷺ خلالها يجتمع بأصحابه ومَن آمن به في دار الأرقم بمكة.

(٣) مجنَّة وعُكَاظُ: من أسواق العرب، كانوا يجتمعون بها في كل سنة فيقيمون شهرا يتناشدون الأشعار ويتفاخرون.

(٤) مسند أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٣٩٣٤، ١٤١٢٦، المستدرك على الصحيحين ٦٨١/٢، حديث رقم ٤٢٥١، سنن البيهقي الكبرى ١٤٦/٨، مجمع الزوائد: ٤٧/٦.

* وبَادَرَ إلى الاستجابة له ﷺ صدِّيقةُ النِّساء، خديجةُ بنت خُوَيْلد - رضي الله عنها - وقامَتْ بأعباء الصِّدِّيقية خَيْرَ قيام.

فعندما قال لها الرسولُ ﷺ: «لقد خشيتُ على نفسي» أجابته بقولها: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتُقْري[1] الضيف، وتحمل الكل[2] وتُعين على نوائب الحق[3]»[4].

لقد استدلَّتْ على ما قالتْ بما عَرفَتْ فيه من الصِّفات الفاضلة، والأخلاق الرفيعة، وقد عَلمَتْ - بكمال عقْلها واستقامة فطرتها - أنَّ الأعمالَ الصالحة والشِّيَم الفاضلة تُناسبُ أشكالها من كرامةِ الله وتأييده وإحسانه، ولا تُناسب الخزي والخسران.

وبهذا استَحَقَّتْ أن يُرسلَ إليها ربُّها بالسَّلام منه مع رسولِه جبريل ومحمد ﷺ

فقد أخرج البخاريُّ ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

«أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّه، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ. فَإِذَا هِيَ أَتَتْك، فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ[5] لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ[6]»[7].

* وبادَر إلى الإسلام عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان ابن ثمان سنين، وكان في كَفَالة رسول الله ﷺ، أخَذَهُ من عمِّه أبي طالب.

---

(١) تُقْري الضيف: أي تُضيفه وتُحسن إليه.
(٢) الكلّ: العيال واليتيم ومن لا يستقل بأمره، وحمل الكلّ معناه: الإنفاق على العيال والضعفاء، والصدقة على المساكين.
(٣) النَّوائبُ: جمع نائبة، وهي ما يَنُوبُ الإنسانَ أي يَنْزِلُ به من المُهِمَّات والحَوادِثِ، ومعني الإعانة على نوائب الحق: أيِ الحوادث التي تكون في الحق دون الباطل.
(٤) حجة الله البالغة: ج ١ ص ١٢٧ .
(٥) القَصَبُ: لُؤْلؤٌ مُجَوَّف واسعٌ كالقَصْرِ المُنِيف.
(٦) الصخب: الصوت المرتفع، والنَّصَب: التَّعَب.
(٧) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٣٦، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٦٠.

* وبَادَر زيدُ بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكانَ غُلاماً لخديجة - رضي الله عنها - فوهبته لرسول الله ﷺ لَمَّا تزوَّجَها.

وقَدِمَ أبوه وعمُّهُ في فدائه، فخيَّره رسول الله ﷺ بين أبيه وعمِّه، وبين البقاء قائلاً له: «أنا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ، وعرفتَ صُحبتي لك، فاخترني أو اخترهما»

فقال زيد: ما أنا بالذي أَخْتَارُ عليك أحدًا أبدًا، أنت منِّي مكان الأب والعمِّ

فلَمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ذلك قال: «أُشهدكم أنَّ زيدًا ابني، يرثُني وأَرِثُه»

فلَمَّا رأى ذلك أبوه وعمُّه طابت نفوسُهما فانصرفا، ودُعيَ «زيدَ بن محمد» حتَّى جاء الله بالإسلام فنزلت ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ**﴾(١).

فدُعيَ من يومئذ: «زيدَ بن حارثة»

الابتلاء في جنب الله وأثره على النفوس المؤمنة:

دخل الناسُ في دين الله واحدًا بعد واحد، وقريشٌ لا تُنْكر ذلك، حتَّى بادأهم بعَيْب دينهم وسَبِّ آلهتهم.

فحينئذ شمَّروا له ولأصحابه عن ساق العداوة، فَحَمَى اللهُ رسولَه بعمِّه أبي طالب؛ لأنَّه كان شريفاً معظَّمًا في قريش، مُطاعًا في أهله، وأهلُ مكة لا يتجَاسَرُونَ على مُكاشفته بشيءٍ من الأذى.

وكان من حِكْمَة الله بقاؤُه على دينِ قومه، لما في ذلك من المصالح التي تَبْدُو لِمَنْ تأمَّلَهَا.

وأما أصحابُه، فمَنْ كان له عشيرةٌ تَحميه امْتَنَعَ بعشيرته.

وسائرُهم تصدَّوا له بالأذى والعذاب، منهم:

---

(١) الأحزاب: ٥.

عمَّارُ بن ياسر، وأُمُّه سُمَيَّة، وأهلُ بيته - جميعاً - عُذِّبوا في ذات الله.

وكان رسول الله ﷺ إذا مَرَّ بهم - وهم يَعذَّبون - يقول:

«صبرًا آل ياسر؛ فإنَّ موعدَكم الجنَّةُ».

ومنهم بلالُ بن رباح.. فإنَّه عُذِّب في الله أشدَّ العذاب، فهان على قومه، وهانت عليه نفسُه في الله، وكان كلَّما اشتدَّ عليه العذب يقول: «أحَدٌ.. أحدٌ»

ولَمَّا اشتدَّ أذى المشركين على من أَسْلَمَ، وفُتِنَ منهم من فُتِن، ومرَّ عدوُّ الله أبو جهل بسُمَيَّةَ أمِّ عمار بن ياسر، وهي تَعَذَّب وزوجُها وابنُها، فطعنها بحربَةٍ حتَّى قتلها.

وقد كان الصِّدِّيق رضي الله عنه إذا مرَّ بأحدٍ من العبيد يُعَذَّب اشتراه منهم وأَعْتَقَهُ، منهم:

بلال بن رباح، وعامرُ بن فهيرة، وأُمّ عُبيسَ، وَزِنِيرَة، والنَّهْدية، وابنتها، وجارية لبني عدي كان عمر يعذِّبها على الإسلام قبل إسلامه.

وقد كان والدُ الصِّديق رضي الله عنه يقول له: يا بني أراكَ تعتقُ رقابًا ضعافًا، فَلَوْ أنَّكَ إذْ فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ أعْتَقْتَ قومًا جُلْدًا يَمْنَعُونَك؟

فقال له أبو بكر: إنِّي أُريدُ مَا أُريدُ.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

لَمَّا اشْتَدَّ البَلاءُ بالمؤمنين في مكة، أذن الله تعالى لهم بالهجرة الأُولى إلى أرض الحبشة، وكان أولَ مَنْ هَاجَر إليها عثمانُ بن عفان، ومعه زوجتُه رُقَيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ.

وكان أهلُ هذه الهجرة الأُولى اثني عشر رجلاً وأرْبَع نِسْوَة، هم:

عثمانُ، وامرأتُه، وأبو حُذيفة، وامرأتُه سَهْلَةُ بنتُ سهيل، وأبو سَلَمَةَ،

وامرأتُه أُمَّ سَلَمَة هند بنتُ أبي أُميَّة، والزُّبيرُ بن العوام، ومُصْعَب بنُ عُمَيْرٍ، وعبدُ الرحمن بن عوف، وعثمانُ بن مَظْعُون، وعامرُ بن ربيع، وامرأتُه ليلى بنت أبي حتمة، وأبو سبرةُ بن أبي رُهْم، وحاطبُ بن عمرو، وسهيلُ بن وهب، وعبدُ الله بن مسعود.

وقد خرج المهاجرون متسلِّلين سرًّا، فَوَفَّقَ الله لهم - سَاعةَ وُصولهم إلى الساحل - سفينتين للتجارة، فحملُوهم فيهما إلى أرض الحبشة، وكان مَخْرجهم في رجب في السنة الخامسة من المبعث.

وخرجَتْ قريشُ في آثارهم حتَّى جاءوا البحرَ، فلَمْ يُدركوا منهم أحدًا، ثُمَّ بلغهم أنَّ قريشًا قد كفُّوا عن النبي ﷺ، فرجعوا، فلَمَّا كانوا دون مكة بساعة من نهار، بلغَهُم أنَّ قريشًا أشدّ ما كانوا عداوةً لرسول الله ﷺ، فدَخَلَ مَنْ دخَلَ منهم بجوارٍ.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

ثُمَّ اشتدَّ البلاءُ من قريش على مَنْ قَدِمَ من مهاجري الحبشة وغيرهم، فأَغْرَتْ بهم عشائرهم، ولَقُوا منهم أذًى كثيراً.

عندئذ أذِنَ لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مَرَّةً ثانيةً وكان خروجُهم الثَّاني أشَقَّ عليهم وأصْعَب، فقد لَقُوا من قريشَ تعْنيفًا شديدًا، ونالوهم بالأذى، وصَعُبَ عليهم ما بلغهم عند النجاشي من حُسْن جواره لهم وكان عُدةُ مَنْ خرج - في هذه المَرَّة - ثلاثةٌ وثمانون رجلاً، ومن النساء تسعُ عشرة امرأة.

قال ابنُ سعد وغيرُه: إنهم لمَّا سمعوا مُهَاجَرَ رسول الله ﷺ إلى المدينة، رجع منهم ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثمان نسوة، فمَاتَ منهم رجلانِ بمكة، وحُبِسَ بمكة سبعةٌ، وشهد بدرًا منهم أربعةٌ وعشرون رجلاً(١).

(١) الطبقات الكبرى ٢٠٧/١، فتح الباري ٧٤/٣، عون المعبود ١٦٠/٣.

وكانت أُمُّ حبيبة - رضي الله عنها - زوجةً لعُبَيْد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزَوَّجَها النجاشيُّ النبيَّ ﷺ وأَمْهَرَها أربعةَ آلافٍ، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة.

هكذا روَتْ أُمُّ حبيبة نفسها، وجاء عنها ذلك بسند صحيح(١).

وقد كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي أنْ يبعَث إليه مَنْ بَقيَ عنده من أصحابه وَيَحْمِلَهم، ففعل.

حَمَلَهُم في سفينتين مع عمرو بن أميَّة الضَّمْري، فقَدمُوا على رسول الله ﷺ بخيبر، فوجدوه قد فتحها، فكلَّمَ رسولُ الله ﷺ المسلمين أنْ يُدخلهم في سهامهم، فَفَعَلُوا.

أمَّا النجاشي فإسلامه ثابتٌ؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ صلى عليه صلاةَ الغائب، كما في البخاري ومسلم، وقال ﷺ عنه:

«ماتَ اليَوْمَ عبدٌ لله صالحٌ، أَصْحَمةُ(٢)»(٣).

ومما يدُلُّ على إسلام النجاشي مَوْقفه من وشاية قريش لرد المهاجرين، وقوله للمهاجرين: اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي. مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ.

ثُمَّ أمَر بردِّ الهدايا وتأمين المهاجرين.

وسيأتي الحديثُ عن ذلك تفصيلاً عند الحديث عن وقائع المدنية المنورة.

هجرةُ أصحاب السفينة وما كان من شأنهم:

قد علمنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أمَرَ أصحابَه - من المهاجرين من قومه ومَنْ معه بمكة من المسلمين - بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها وقال لهم: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١٩٨/٢، مجمع الزوائد ٢٥١/٩.

(٢) أصحمة: تعني بالعربية «عطية».

(٣) مسلم - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٥٨٣.

ويعني ﷺ بـ «الدَّار» المدينة المُنَوَّرَة التي هاجر الرسول ﷺ إليها، واتخذَهَا مقراً لدعوته، وجعلها الله حرماً آمناً.

وعندما سمع صحابتُه أنَّه أمَرَ بالهجرة إليها، سارعوا بالخروج إليها.

فماذا فعل الذين كانوا بالحبشة مهاجرين إليها، وقد طال مُقامُهم فيها؟ وبخاصة أولئك الذين أسلموا من قبل وهاجروا الهجرتين إليها؟

لقد أُمر «حزب الله» في الحبشة - كما أُمِرَ غيرُهم - بالهجرة إلى الدَّار، دار الإيمان، لتقومَ بهم دولة تلك عاصمتها.

ومنها يشِّعُ نورُ الإسلام إلى كلِّ مكان، ويُعقَد لواء الجهاد في سبيل الله دون تَعْوِيقٍ أو إبطاء، لتحقيق ما جاء الإسلامُ به من بلاغٍ وإنذار للعالمين.

وقد أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾(١).

أُمِرَ الرسول ﷺ بذلك، كما أُمرتْ أُمَّته بِصِدْقِ البَلاغ وحُسْن الاتِّباع

ولابد لتحقيق ذلك من الأخْذ بأسباب القوة، والعمل على إعداد النفوس، واعتصامها جميعاً بحبل الله المتين.

ولا قوة إلا بالأخوة في الله، والتضامن لإعلاء كلمة الله.

وإعداد الإنسان الذي يَعي رسالتَه، ويُدْرِك حِكْمَةَ خَلْقِه وغاية وُجُوده

وتكون بهم الأُمَّة التي عَنَاهَا اللهُ بقوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾(٢).

---

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) آل عمران: ١١٠.

ومَنْ تدبَّر كلماتِ جعفر في هجرته إلى الحبشة - وهو يُخاطب النجاشي في جَمْعٍ ممَّنْ طُلبوا لسماع ما يقوله جعفر عن هذا الدِّينِ - أدركَ - من أول الأمر - أن الإنسانَ الذي أُعِدَّ للهجرة كان على يَقين برسالته، ومعرفة صادقة بغايته، وصدْق وإخلاص في إخضاع كلِّ شيء لمَرْضَات خالقه.

ولْنَتَدبَّر الأمرَ من بدايته مع هذا الفريق من حزب الله الذي شاءَ الله أن تكون هجرتُهم الأولى إلى الحبشة.

روى مسلمٌ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

«بَلَغَنَا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمَا، أَحَدُهُمَا: أَبُو بُرْدَةَ، وَالآخَرُ: أَبُو رُهْمٍ. إِمَّا قَالَ: بِضْعًا، وَإِمَّا قَالَ: ثلاثَةً وَخَمْسِينَ، أَوِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي

قَالَ: فَرَكِبْنَا سَفِينَةً، فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ[1] فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ.

فَقَالَ جَعْفَرٌ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنَا هَاهُنَا، وَأَمَرَنَا بِالإِقَامَةِ، فَأَقِيمُوا مَعَنَا فَأَقَمْنَا مَعَهُ، حتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا

قَالَ: فَوَافَقْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فَأَسْهَمَ لَنَا، أَوْ قَالَ: أَعْطَانَا مِنْهَا، وَمَا قَسَمَ لأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا، إِلاَّ لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ، إِلاَّ لأَصْحَابِ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ، قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ.

قَالَ: فَكَانَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا - يَعْنِي لأَهْلِ السَّفِينَةِ -: نَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ.

قَالَ: فَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ - وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا - عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ..

---

(١) أي بسبب هيجان البحر والريح.

فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟

قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ.

قَالَ عُمَرُ: الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ؟ الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟

فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ.

فَقَالَ عُمَرُ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ.

فَغَضِبَتْ، وَقَالَتْ كَلِمَةً:

كَذَبْتَ يَا عُمَرُ، كَلاَّ وَاللَّهِ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ - أَوْ فِي أَرْضِ - الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ فِي الْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ.

وَأَيْمُ اللَّهِ، لا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلا أَشْرَبُ شَرَابًا، حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَسْأَلُهُ.

وَوَاللَّهِ لا أَكْذِبُ، وَلا أَزِيغُ، وَلا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ - أَهْلَ السَّفِينَةِ - هِجْرَتَانِ».

قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالاً(١) يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

---

(١) أرْسالاً: أي جماعة في إثر جماعة.

قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الحَدِيثَ مِنِّي(١).

*****

في هذا الحديث فَضيلةٌ ظاهرةٌ لجعفر بن أبي طالب، ومَنْقَبَةٌ لأسماء بنت عُمَيْس زوجه.

وفيه بَيَانٌ لفَضْلِ الله تعالى على أصحاب السفينة؛ إذ لم يكن مَقْصدُهم حين ركبوا السفينةَ من اليمن إلى مَكَّة حين مبعث رسول الله ﷺ أن يصلوا إلى الحبشة حيث المهاجرين من حزب الله.

ولكن شاءت إرادة الله تعالى لهؤلاء أن تُلْقِيَ بهم سفينتُهم إلى حيث لم يُريدوا.

سبحانك ربي! لا إله إلا أنت..

لقد أَلْقَتْ بهم إلى الحبشة، لهيجان البحر والريح وهم يُريدون أن يصلوا إلى مكة، حيثُ بَلَغَهم مَبْعَثُ رسول الله ﷺ.

فشاء الله أنْ يَنْعَمُوا بهجرتين، ويكونَ لهم ما كان من إسْهَام لهم، فما قَسَم رسولُ الله ﷺ لأحَدٍ غَابَ عن فَتْح خيبر منها شيئاً، إلا لِمَنْ شهد معه، إلا أصحاب السفينة الذين عرفنا منْ أَمْرِ سفينتهم ما عرفنا.

فكان من فَضْل الله عليهم ورحمته بهم - وهُمْ يَقْصُدون مرضات ربِّهم - أنْ جَعَلَ لهم هجرتين، وأن تكون هجرتهُم إلى المدينة المُنَوَّرَة هجرة بَعد بَلاءٍ وتَمْحيص، وبعد صَبْرٍ ورجاءٍ، فَحَظيَتْ بهم دارُ الأبرار بعد أنْ مُحِّصُوا لها، وفازوا بالدَّار بعد صِدْق الإيمان.

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٠٥، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٥٨.

فهنيئاً لهم بذلك، وهنيئاً لهم ببُشْرَى رسول الله ﷺ التي قالت عنها أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْس - وهي تذكرُ أثرَها في أنفسهم -: «مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ، مِمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ».

وقالت: «فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الحَدِيثَ مِنِّي».

المقاطعة العامة وميثاق الظلم القرشي:

لَمَّا رأتْ قريشُ أمْرَ رسولَ الله ﷺ يعلُو وأعداد المؤمنين به في تزايد، أجْمَعُوا أمرهم على أنْ يتعاقدوا على بني هاشم، وبني عبدالمطلب، وبني عبد مناف أنْ لا يُبايعوهم، ولا يُنَاكحُوهم، ولا يُكلِّموهُم، ولا يُجَالسوهم، حتَّى يُسَلِّموا إليهم رسولَ الله ﷺ.

وكتبوا بذلك صحيفة، وعلَّقوها في سَقْف الكعبة.

فانْحَاز بنو هاشم، وبنو عبدالمطلب - مؤمنُهم وكافرُهم - إلاَّ أبا لهب؛ فإنَّه ظاهَرَ قريشاً على رسول الله ﷺ وبني هاشم، وبني عبدالمطلب.

وحُبِسَ رسولُ الله ﷺ - ومَنْ معه - في الشِّعْب، شعْب أبي طالب ليلةَ هلالِ المحرم سنة سبع من البعثة، وعُلِّقَتْ الصحيفةُ في جوف الكعبة، وظلُّوا محصورين، مُضَيَّقاً عليهم، مَقْطُوعًا عنهم الميرةُ(١) والماء نحو ثلاث سنين

حتى بلغَهُم الجَهْدُ، وسُمِعَ أصواتُ صبيانهم بالبُكاء من وراء الشِّعْب.

وكانت قريشُ في ذلك بين راضٍ وكارهٍ.

فسَعَى في نَقْض الصَّحيفة مَنْ كان كارهاً لها، وكان القائمُ بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك.

(١) المِيرة: الطعام.

مشَى في ذلك إلى المُطعَم بن عدي وجماعةٍ من قريش، فأجابوه إلى ذلك.

ثُمَّ أطْلَعَ اللهُ رسولَه ﷺ على أمْرِ صحيفتهم، وأنَّه أرسل عليها الأَرَضَةَ(١) فأكَلَتْ جميعَ ما فيها من جوْرٍ وقَطيعةٍ وظُلم، إلاَّ ذكْر الله عز وجل، فأخْبَر بذلك عَمَّه.

فخرج أبو طالب إلى قريش، فأخبرهم أنَّ ابنَ أخيه قد قال كذا وكذا، فإنْ كان كاذبًا خَلَّينَا بينكم وبينَه، وإنْ كان صادقًا رجعتُم عن قَطِيعَتِنا وظُلْمِنا

قالوا: قدْ أنْصفْتَ، فأنزَلُوا الصحيفَةَ، فلَمَّا رَأوْا الأمْرَ كما أخبرَ به رسولُ الله ﷺ، ازدادوا كفْرًا إلى كُفْرِهم

وخرج رسولُ الله ﷺ، ومَنْ معه من الشِّعْب بعد عشرة أعوام من المبعث

الرسول ﷺ في الطائف يدعو إلى الله:

لَمَّا نُقِضَتِ الصحيفةُ وافق موت أبي طالب وموت خديجة - رضي الله عنها - وبينهما يسير(٢).

فاشتدَّ البلاءُ على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتَجَرَّؤوا عليه، فكاشفوه بالأذى حتى قال ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»(٣).

عندئذ خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، رجَاءَ أن يُؤووه ويَنْصُروه على قومه، ويمنعوه منهم.

ودعاهم إلى الله عز وجل فلم يَر مَنْ يُؤْوي ولم يَر ناصرًا، وآذَوْه - مَعَ ذلك - أشدَّ الأذى، ونالوا منه ما لم يَنَلْهُ قومُه.

---

(١) الأَرَضَة: دُوَيْبَة تأكل الخشب.

(٢) رجَّح ابن الجوزي في (تلقيح فهوم أهل الأثر) أن وفاة خديجة - رضي الله عنها - كانت بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة، وكان ذلك في رمضان من السنة العاشرة من البعثة النبوية، ولها خمس وستون سنة.

(٣) تاريخ الطبري: ١/٥٥٤، السيرة لابن هشام ٢/٢٦٤.

وكان معه «زيدُ بن حارثة» مولاه، فأقام بينهم عشرةَ أيام لا يَدَعُ أحدًا من أشرافهم إلاَّ جَاءَه وكلَّمَه.

فقالوا: اخرج من بلدنا. وأغْرَوا به سفهاءَهم، فوقفوا له سِمَاطيْن[١] وجعلوا يَرْمُونه بالحجارة حتَّى دَمِيَتْ[٢] قدماهُ.

وزيد بن حارثة يَقيه بنفسه، حتَّى أصابه شِجَاجٌ في رأسه!

فانصرفَ راجعًا من الطائف إلى مكة مَحْزُوناً.

وفي مَرْجعه ذلك دعَا بالدعاء المشهور، دعاء الطائف:

«اللهُمَّ إليكَ أشْكُو ضَعْفَ قُوَّتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهَوَاني على النَّاس

يا أَرْحَمَ الراحمين، أنْتَ ربُّ المستضعفين، وأنْتَ ربِّي

إلى من تَكِلُني؟! إلى بعيدٍ يَتجَهَّمُني[٣]؟ أو إلى عَدُوٍّ ملَّكْتَهُ أَمْري؟

إنْ لم يكنْ بكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أُبَالي، غَيْرَ أنَّ عافيتَك هي أوْسَعُ لي.

أعوذُ بنُور وَجْهكَ الذي أشْرَقَتْ له الظلماتُ، وصَلُح عليه أَمْرُ الدنيا والآخرةِ، أنْ يَحلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أو أنْ يَنْزِل بي سَخَطُك

لك العُتبى حتَّى تَرْضَي، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بك»

فأرسلَ ربُّه - تبارك وتعالى - إليه مَلَكَ الجبال، يستأمِرُه أنْ يُطبق الأخشبين[٤] على أهل مكة، فقال:

«لا، بل أستأني بهم[٥] لعَلَّ الله يُخرجُ من أصلابهم من يَعْبُد الله لا يشركُ به شيئًا».

---

(١) سِمَاطيْن: أي صفَّيْن. (٢) دَمِيَتْ قدماهُ: أي سال منها الدم.
(٣) يَتَجَهَّمُني: أي يلقاني بالغلْظة والوجه الكريه.
(٤) الأخْشبان: جبَلان مُطيفانِ بمكَّة وهما: أبو قُبَيْس، والأحْمَرُ.
(٥) استَأْنى به: أي انتظَرَ به.

عن عَائشَة - رَضِي اللَّه عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «يا رسولَ الله، هَلْ أَتى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟

قَالَ: لَقَدْ لَقيتُ مِنْ قَوْمك مَا لَقيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَة، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْد يَاليلَ بْنِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ - وَأَنَا مَهْمُومٌ - عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالب[1] فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عز وجل قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ. وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ؛ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قال: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وأنا مَلَكَ الجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَني ربُّك إِلَيْكَ؛ لتأمُرني بأمْرك، فمَا شِئْتَ. إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ له رسول اللَّه ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[2].

ولَمَّا توجه الرسولُ ﷺ إلى مكة، قال له زيدُ بن حارثة:

كيف تدخُلُ عليهم وقد أَخْرَجُوك؟ يعني قريشًا، فقال ﷺ: «يا زيدُ، إنَّ الله جاعلٌ لِمَّا ترى فرجًا ومخرجاً، وإنَّ الله ناصرُ دينَه، ومُظهر نبيَّه».

ثم انتهى إلى مكة، فأرسل رجلاً من خُزاعةَ إلى مُطعم بن عدي:

أدخُلُ في جِوارِكَ؟

فقال: نعم. ودعا بنيه وقومَه، فقال: البِسُوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإنِّي قدْ أَجَرْتُ محمداً.

---

(١) قرن الثعالب: ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة.

(٢) البخاري - كتاب بدء الخلق، حديث رقم ٢٩٩٢، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٥٢.

فدخل رسولُ الله ﷺ ومعه زيدُ بن حارثة، حتَّى انتهى إلى المسجد الحرام فقام المطعمُ بن عَدِي على راحلته، فنادى:

يا معشر قريش، إنِّي قد أجَرْتُ محمداً، فلا يَهِجْهُ[(١)] أحدٌ منكم.

فانتهى رسولُ الله ﷺ إلى الرُّكْن، فاستَلَمَهُ[(٢)] وصلى ركعتين، وانْصَرَف إلى بيته، والمطعم بن عدي وولده محدِقُون به بالسِّلاح، حتَّى دخل بيته.

الإسـراء والمعـراج:

ضَاقَتْ الأرض برسول الله ﷺ على النحو الذي رأيناه..

فبعد أنْ فَقَدَ الرسولُ ﷺ مَنْ كان ينْصُره من البشر.. فَقَدَ مَنْ كان يُؤْنسُهُ ويُؤازره

فَقَدَ عـمَّه أبا طالب، وهو منْ هو مكانةً عند قـريش، وفَقَدَ خـديجةَ وقد كانت نِعْمَ الزوج.

وها هـو ﷺ يعـودُ من الطَّائف مع زيد بن حـارثة، فـلا يدخل مكة إلاَّ في جوار المطعم بن عدي.

ولكنَّ رعاية الله باتت تُظلل رسولَه ﷺ.

ويَالَهَا من دلالة بالغة على تكريم الله لرسوله ﷺ ورعايته لـه، أن يأتي أمْرٌ ذو بالٍ في حيـاة الرسول ﷺ، أمْرٌ فيـه من المؤانَسَةُ والعزاء مـا فيـه، وفيـه من آيات الحق والقُدرة الإلهية والحكمة ما فيه.

إنَّه أمْرُ الإسـراء والمعراج، الذي لا تُرى فيه إلاَّ كلمـة العَليِّ القَدير في وقت عزَّ فيه من البشر المؤيدُ والنَّصير.

ويُرَى الكَوْنُ - أرْضُـه وسَـماؤه - حَفيٌّ بمَنْ ظنَّ الجاحـدون أنَّه بمَعْزلٍ عن حماية ربِّه ورعاية خالِقه.

---

(١) أي: لا يرده عمَّا أراد، ولا يناله بسوء. (٢) استَلَمَ الركن: أي لَمَسَه.

وأيُّ مُؤَانَسَةٍ أعظم، وأيُّ تكريم أشدّ وأبقى من هذا التكرم؟!!

جبريل عليه السلام يأتي بأمر ربِّه، ليَصْحَب الرسول ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج!

ولا تَسَلْ عمَّا يكون في ذلك من إعجاز؛ إذْ الأمْرُ كلُّه فوق طاقة العباد

إنَّه أَمْرُ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء.. إنَّه أَمْرُ الله.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[١].

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«أُسْرِيَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البُرَاق، صُحبة جبريل - عليهما الصَّلاة والسَّلام - فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراقُ بِحَلَقَة باب المسجد، ثم عُرِجَ به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا»[٢].

سبحانك ربي، لا إله إلاَّ أنت.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣].

وقد أتمَّ اللهُ الرحلةَ وأخْبَرَ بها؛ لتكون زادًا ليقين الناس وإيمانهم ومعرفتهم بقَدر خالقهم، وأنَّ أرضَهم وسماءَهم مَمْسُوكَةٌ، غيرُ مَتْرُوكة لعَبث العابثين أو إضلال المضلين.

---

(١) فاطر: ٤٤.
(٢) زاد المعاد: ٦٩/٢
(٣) الإسراء: ١.

وأنَّ الله قد اختَارَ مَن اصطفاه ليُريَه من آياته ﴿**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾(١).

وقد رأى ما رأى من آيات ربِّه الكُبْرَى في وقت وجيز لمْ يُبَارحْ ليلةَ أُسرى به.

فلَمَّا أَصْبَحَ في قومه، أخْبرهم بما أراه الله ﷺ من آياته الكُبْرَى، فاشتدَّ تكذيبهم وأذاهُم وضَراوتُهم عليه، وسَأَلُوه أنْ يصفَ لهم بيتَ المقدس

فَجَلاَّه الله له حتَّى عَايَنَه، فطَفِقَ يُخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أنْ يرُدُّوا عليه شيئًا.

وأخبرهم عن عيرهم في مَسْراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يَقْدُمها

وكان الأمْرُ كما قال، فلم يَزدْهُم ذلك إلاَّ نُفُورًا، وأَبَى الظَّالِمُونَ إلاَّ كُفُوراً

قال موسى بن عقبة، عن الزهري: «عُرج برُوح رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، وإلى السماء قبل خروجه إلى المدينة بسَنَة»(٢).

وقال ابنُ عبدالبَرِّ وغيرُه: «كانَ بين الإسراء والهجرة سنَة وشهران»

بدء إسلام الأنصار:

وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أنَّ «الأوس والخزرج»(٣) كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أنَّ نبيّاً من الأنبياء، مَبْعُوث في هذا الزمان، سيَخْرُج فنتَّبعه، ونقتلكُم معه قَتْلَ عاد وإرَم(٤). قال تعالى: ﴿**وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: من الآية:٨٩).

---

(١) النجم: ١٨ . (٢) الاستيعاب: ١/٤٠.

(٣) الأوس والخزرج: قبيلتان عربيتان هاجرتا من اليمن وسكنتا يثرب. قامت بينهما حروب عديدة كان آخرها يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات، وبعد ظهور الإسلام دخل الأوس والخزرج تحت لوائه وعرفوا بـ «الأنصار».

(٤) عاد وإرم: من أقدم القبائل العربية كانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان.

وكانت الأَنْصَار يَحجُون البيت، كما كانت العرب تَحجُّه دون اليهود(١) فلَمَّا رأى الأَنْصَار رسولَ الله يدعو النَّاسَ إلى الله عز وجل، وتأمَّلُوا أحوالَه، قال بعضُهم لبعض: تعلمون - والله - يا قوم أنَّ هذا الذي توعَّدكم به يَهُودُ، فلا يَسْبِقُنَّكم إليه، ثمَّ أجابوه ﷺ فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك.

وكانوا ستة نفَر كلُّهم من الخزرج وهم:

أبو أُمامة أسعَدُ بنُ زرارة، وعوفُ بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبةُ بن عامر، وعقبةُ بن عامر، وجابر بن عبدالله بن رئاب.

فلما قدموا المدينة دعَوْا أهلها إلى الإسلام، فَفَشَا الإسلام فيها، حتَّى لم يبق دارٌ إلاَّ وقد دخلها الإسلامُ.

بيعة العقبة الأولى:

لَمَّا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة(٢) وهي العقبة الأولى، السِّتَّةُ الأُوَل، خلا جابر بن عبدالله، ومعهم مُعَاذ ابن الحارث بن رفاعة، أخو عوف المتقدِّم، وذَكْوان بنُ عبدالقيْس، وقد أقام ذَكْوَانُ بمكة حتَّى هاجر إلى المدينة، فيُقال: إنَّه مهاجري أنصاري، وعبادةُ ابن الصامت، ويزيدُ بن ثعلبة، وأَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ، وعُوَيْمر بن مالك - هم اثْنَا عشر.

---

(١) كان بالعرب - على شركهم بالله - بقايا من حنيفية إبراهيم - عليه السلام - يتمسكون بها، كتعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، غيْر أنهم - مع تطاول العُمُر وغلبة الأهواء - غيروا في الحج وبدلوا.

(٢) العقبة: موضع بين منى ومكة، بينها وبين مكة نحو ميلين، ومنها تُرمى جمرة العقبة.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

«كنتُ فيمَن حضر العقبة الأولى، وكنَّا اثني عشر رجلاً، فبايعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء[1] - وذلك قبل أن تُفتَرَض الحرب - على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادَنَا، ولا نأتي ببُهْتَان نَفْتَرينَه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر».

مصعب سفير الإسلام في المدينة:

حمل هؤلاء الرجالُ إلى قومهم دعوةَ الإسلام، واستجاب مَنْ استجابَ لهذه الدعوة، وبدأ الإسلامُ ينتشر بين الأنْصَار.

عند ذلك أرسلوا إلى رسول الله ﷺ كتاباً يقولون فيه:

ابعَثْ إلينا رجلاً من أصحابك يُفقِّهُنَا في الدِّينِ، ويُقرئنا القرآن.

فاختار الرسولُ ﷺ مُصْعَب بن عُمَيْر ليكونَ مُوفَداً إليهم.

فلم يزل يدعو آمناً، ويهدي الله تعالى على يديه، حتَّى قَلَّ دارٌ من دُور الأنْصَار إلا قد أَسْلَمَ مَن أَسْلَمَ من أشرافهم.

قال ابنُ شهاب: «وكان مُصْعَب أول مَنْ جَمَعَ الجمعة بالمَدينَة بالمسلمين قبل أن يَقْدُمها رسول الله ﷺ»[2].

وعن البراء قال: «أول مَنْ قَدِمَ المَدينَةَ من المهاجرين مُصْعَبُ بنُ عمير»

فمَنْ هو مُصْعَب بن عُمَيْر الذي اختاره الرسول ﷺ؟ وما سيرتُه؟

---

(١) أي على نمطها، وكانت بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال.

(٢) فتح الباري ٢/٣٥٥، حلية الأولياء ١/١٠٧، صفة الصفوة ١/٣٩١.

كان مُصْعَب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُسمّى «المُقرئ».

والده: «عُمير بن هشام بن عبدمناف» من أشرف بُيوتات قريش وأعرقها حَسَباً ونسباً.

والدتُه: «خناس بنت مالك بن المضرب» من أكثر أغنياء مكة ثروةً ومالاً.

ما جاءت قافلةٌ إلى مكة إلاَّ وكان لها فيها نصيبٌ، وما خَرَجَتْ قافلةٌ من قوافل مكة إلى الشام، إلا كان لوالدة مُصْعَب فيها إبلٌ وجَمَلٌ.

أخُوه: «أبو عزيز» صاحب لواء المشركين ببَدْرٍ بعد النَّضْر بن الحارث، وأحدُ الأسرى فيها.

أَسَرَهُ «أبو اليُسر» فسألتْ أمُّهُ عن أغلى ما فُدِيَ به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فلم تدفع أقلَّ من ذلك فداءً له.

وُلِدَ مُصْعَبُ ﷺ بمكةَ، ونشأ على بطحائها بين أبوَيْن يُحبّانه، ويؤثرانه، ولا يبخلان عليه بشيء.

وعُرِفَ بـ «الفتى المُعطَّر» حيثُ كان أعطَرَ أهل مكة ريحاً، وأجملهم ثوباً

وكان رسولُ الله ﷺ يذكره ويقول: «ما رأيتُ بمكة أحداً أحسن لِمَّة، ولا أرقَّ حُلَّةً، ولا أنْعَمَ نعمَةً من مُصْعَب بن عُمَيْر»(١).

أَسْلَمَ مُصْعَب والرسول ﷺ في «دار الأرقم»(٢) ونطق بكلمة الشهادة، الكلمة الفاصلة بين عَهْدَيْن.

وخرج مُصْعَب من «دار الأرقم» يكتمُ إيمانه.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٢٢١/٣، حديث رقم ٤٩٠٤، الطبقات الكبرى ١١٦/٣، الاستيعاب ١٤٧٤/٤

(٣) دار الأرقم: هي دار تقع على الصفا، اختارها النبي ﷺ ليلتقي بأصحابه فيها بعيداً عن أعين الرقباء.

obeikandi.com

فأبْصَرَهُ عثمانُ بن طلحة يُصلي، فأشاع ما رأى، وأُخبرَتْ أُمُّهُ بما حدث وكان يوماً عصيباً على مُصْعَبٍ؛ فقد لقي من أُمِّهِ ما لقي.

دأبَتْ إلا أن تضعَ قدمَهُ في القَيْد حتَّى يموتَ أو يرجع عمَّا أقدَم عليه.

واستمر مُصْعَب في قيده مُعتصماً بربه حتَّى أَذِنَ الرسولُ ﷺ بالهجرة إلى الحبشة.

فانفَلَتَ من مَحْبَسه، وانْضَمَّ إلى قافلة المهاجرين الفَارِّينَ بدينهم من أذى قريش.

وعاد مُصْعَبُ مع العائدين إلى مكة عندما وَصَلَ إلى أسماعهم ما أُشيعَ من أنَّ قريشاً قد تابعَتْ محمداً.

وكان مُصْعَب من هؤلاء العائدين إلى وطنهم.

عاد من الحبشة، وأقبل على رسول الله ﷺ وهو جالس بين أصحابه، وعليه قطيفة نَمِرَة(١) قد وَصَلَهَا بإهَاب(٢) فَلَمَّا رآه أصحابُ رسول الله ﷺ رَأَوْا رسولَ الله ﷺ يُحْسِنُ الثَّنَاءَ عليه ويقول:

«الحمدُ لله، يُقلّب الدنيا بأهلها، لقد رأيتُ هذا - يعني مُصْعَباً - وما بمكة فَتىً من قريش أنْعَم - عند أبويه - نعيماً منه، ثُمَّ أخرجه من ذلك الرغبةُ في الخير في حُبِّ الله ورسوله ﷺ»(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

«نظر النبي ﷺ إلى مُصْعَب بن عُمَيْر مُقْبلاً، وعليه إهابُ كبشٍ قد تَنطَّق به، فقال النبي ﷺ: انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نَوَّرَ الله قلبَه، لقد

(١) النَمِرَة: بُردة من صوف تلبسها الأعراب.
(٢) الإهَاب: هو الجلد ما لم يُدْبَغ.
(٣) الطبقات الكبرى: ٣/١١٦.

رأيتُه بين أبوين يَغْذُوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حُبُّ الله ورسوله إلى ما تَرَوْنَ»[١].

وعن محمد بن شرحبيل قال:

«حمل مُصْعَبُ اللواءَ يوم أُحُد، فلمَّا جَالَ المسلمون ثبَتَ به مُصْعَب، فأقبلَ ابنُ قميئة، فضرب يدَه اليمنى فقطعها، ومُصْعَب يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾[٢].

وأخذ اللواءَ بيده اليُسرى، وحَنَى عليه، فضَرَبَها ابن قميئةُ فقطعها، فحَنَا مُصْعَبُ على اللواء، وضَمَّهُ بعضُديه إلى صدره وهو يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ ثُمَّ حملَ عليه الثالثة بالرُّمح فَأَنْفَذَه[٣]»[٤].

وكان مُصْعَب بين أربعين سنة أو يزيد قليلاً.

وقال ابن سعد: قال عبدُ الله بن الفضل: «قُتِلَ مُصْعَب، وأخذ اللواءَ مَلَكٌ معه في صورته، فجعل النبي ﷺ يقول له في آخر النهار: تَقَدَّم يا مُصْعَب، فالتفَتَ إليه المَلَكُ، وقال: لَستُ بمُصْعَب، فعرف النبي ﷺ أنه مَلَكٌ أُيِّدَ به»[٥].

وعند عُبيد الله بن عمير قال:

«لَمَّا فرغ رسول الله ﷺ من أُحُد، مَرَّ على مُصْعَب بن عُمَيْر مقتُولاً على طريقه، فقال: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾[٦].

---

(١) شعب الإيمان ٥/١٦٠، الترغيب والترهيب ٣/٨١، حلية الأولياء ١/١٠٨، صفوة الصفوة ١/٣٩٢.
(٢) آل عمران: ١٤٤.
(٣) أنفذه: أي قضى عليه.
(٤) صفوة الصفوة: ١/٣٩٢، الطبقات الكبرى ٣/١٢٠.
(٥) الطبقات الكبرى: ٣/١٢١، صفوة الصفوة ١/٣٩٣.
(٦) الأحزاب: ٢٣.

وعَنْ خَبَّابٍ قَالَ:

«هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ، فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا نُكَفِّنُهُ فِيهِ إلاَّ نَمِرَةً، كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ، فَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ بِهَا، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنْ إِذْخِرٍ(١) وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا(٢)»(٣).

وعن عُبيد بن عمير قال:

«مَرَّ رسولُ الله ﷺ على مُصْعَب بن عُمَيْر حين رجع من أُحُد، فوقفَ عليه وعلى أصحابه فقال: أشْهَدُ أنَّكُم أحياء عند الله. فزوروهم، وسَلِّمُوا عليهم، فوالذي نفسي بيده، لا يُسَلِّمُ عليهم أحدٌ إلاَّ ردُّوا عليه إلى يوم القيامة»(٤).

*****

ذاك مُصْعب بن عُمير الذي اختاره الرسول ﷺ ليكون داعية الإسلام في أطيب دار..

فما نشاطه في مدينة رسول الله ﷺ؟ وكيف كانت دعوته إلى الله تعالى؟

لَمَّا قدِمَ مُصْعبُ المدينة نزل على «أَسْعَد بن زُرَارَة» أحد رجالات البيعة الأولى، ومن السابقين إلى الإسلام.

يقول عبدالرحمن بن كعب:

---

(١) الإذخر: نبات طيِّب الرائحة.

(٢) قوله «منا من أينعت له ثمرته» أي: أدركت ونضجت، وقوله «فهو يهدبها» أي: يجتنيها، وهذا استعارة لما فتح عليهم من الدنيا.

(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٠٨، ٣٦٢٣، كتاب الرقاق، حديث رقم ٥٩٦٧.

(٤) المعجم الكبير ٣٦٤/٢٠، حلية الأولياء ١٠٨/١.

«كنتُ قائدَ أبي كعب بن مالك حين ذهب بَصُرُه، فكنتُ إذا خرجتُ به إلى الجمعة، فسمع الأذان بها، صلَّى على أبي أُمَامَةَ، أَسْعَد بن زُرَارَة

قال: فمكث حِيناً على ذلك، لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلَّى عليه، واستغفر له

قال: فَقُلْتُ في نفسي: والله، إنَّ هذا بي لَعَجْزٌ، ألا أسأله مَا لَهُ إذا سمع الأذان للجمعة صلى على أبي أُمَامة، أَسْعَد بن زُرَارَة؟

قال: فخرجتُ به في يوم جمعة كما كنتُ أخرج، فَلَمَّا سمع الأذانَ للجمعة صلى عليه واستغفر له.

قال: فقلتُ له: يا أبت مالَكَ إِذَا سَمِعْتَ الأذان للجمعة صليتَ على أبي أُمامة؟

قال: أي بُنيّ، كان أوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بنا بالمَدينَة.

قال: قلتُ: وكم أنتم يومئذ؟

قال: أربعون رجلاً.

*****

نزل مُصْعَبُ بنُ عُمير ضيفاً على أسعد بن زُرارة، وما إن استقر المُقَامُ بمصعب حتى أخذ في أداء ما كُلِّفَ به.

قال ابن إسحاق: حدثني عبيد الله بن معيقب، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زُرارة خرج بمُصْعَب يريد دار بني الأشهل، ودار بني ظفَر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زُرارة، وسَعْد بن مُعَاذ، وأُسَيْدُ بن حُضَيْر - يومئذ - سيِّدا قومهما من بني عبدالأشهل، وكلاهما مُشْرِكٌ على دِين قومه.

قال سَعْد بن مُعاذ: لا أبَا لَكَ [١] انْطَلِقْ إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دَارَيْنَا؛ ليُسَفِّها ضعفاءنا، فازجرهما، وانْهَهُمَا عن أن يأتيا دَارَيْنَا، فإنه لولا أن أَسْعَد بن زُرَارَة مني حيثُ قد علمتَ، كَفَيْتُكَ ذلك.

هو ابن خالتي، ولا أجدُ عليه مقدما.

قال: فأخذ أُسَيْدُ بن حُضَيْر حربته، ثُمَّ أقبل إليهما، فَلَمَّا رآه أَسْعَدُ بن زُرَارَة قال لُمصْعَب بن عُمَيْر:

هذا سيِّدُ قومه قد جاءك، فاصْدُق الله فيه.

قال مُصْعَب: إنْ يجلس أُكلِّمه.

قال: فوقفَ عليهما مُتشتِّماً.

فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفِّهان ضعفاءَنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ.

فقال له مُصْعَب: أوَتَجلِسُ، فتسمع، فإن رضيتَ أمراً قبلتَهُ، وإن كرهتَهُ كُفَّ عنك ما تكره.

قال: أنصفتَ. ثُمَّ ركَّزَ حربَتَه، وجلس إليهما.

فَكَلَّمه مُصْعَبُ بالإسلام، وقرأ عليه القرآن.

فقالا - فيما يُذْكَرُ عنهما -: والله لَعَرفنا في وجهه الإسلام قبل أنْ يتكلم في إشراقه وتَسهّله.

ثم قال: ما أَحْسَنَ هذا الكلام وأجمله.

كيف تصنعون إذا أردتم أنْ تدخلوا في هذا الدِّين؟

---

(١) لا أبا لك: كلمة تُقالُ في الذم والمدح، والمراد بها هنا المدح.

قالا له: تغتسل، فَتَطَهَّرَ، وتُطَهِّرَ ثوبيك، ثُمَّ تشهد شهادة الحق، ثُمَّ تُصلي

فقام فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثُمَّ قام فركع ركعتين

ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سَعْد بن مُعَاذ.

ثم أخذ حرْبَتَه وانصرف إلى سَعْدٍ وقومه وهم جلوسٌ في ناديهم، فَلَمَّا نظر إليه سَعْدُ بن مُعَاذ مُقْبلاً قال:

أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم

فَلَمَّا وقف على النادي قال له سَعْدٌ: ما فعلْتَ؟

قال: كلَّمتُ الرجلين، فوالله ما رأيتُ بهما بأساً، وقد نهيتُهما، فقالا نفعل ما أحببتَ.

وقد حُدِّثْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أَسْعَد بن زُرَارَة؛ ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك؛ لِيُخْفِرُوكَ(١).

قال: فقام سَعْدٌ مُغْضَباً مُبادراً؛ تخوفا للذي ذُكِرَ له من بني حارثة

فأخذ الحَرْبَةَ من يده، ثُمَّ قال:

والله، ما أراك أغنيتَ عنا شيئاً، ثُمَّ خرج إليهما، فَلَمَّا رآهما سَعْدٌ مطمئنَيْن، عرف أن أُسَيْداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما مُتَشتِّماً

ثم قال لأَسْعَد بن زُرَارَة: يا أبا أُمامة، أما - والله - لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت هذا مني، أَتَغْشَانَا في دارينا بما نكره؟!

---

(١) الخُفْرَة: هي الذمة، وأخفرَه أي نقض عهده، وخاسَ به، وغَدَره.

وقد قال أَسْعَد بن زُرَارَة لِمُصْعَب بن عُمَيْر: أي مُصْعَب، جاءك - والله - سيِّد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان

قال: فقال له مُصْعَب: أَوَتَقْعُد، فتسمع، فإن رضيتَ أمراً، ورغبت فيه، قبلته، وإن كرهته عزلْنَا عنك ما تكره؟

قال سَعْدٌ: أنصفت، ثُمَّ ركَّزَ الحربة وجلس.

فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن.

قالا: فعرفنا - والله - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم؛ لإشراقه وتسهّله

ثم قال لهما: وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدِّينِ؟

قالا: تغتسل، فتطهَّر، وتُطَهِّرَ ثوبيك، ثُمَّ تشهد شهادة الحق، ثُمَّ تُصلي ركعتين

قال: فقام فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثُمَّ ركع ركعتين، ثُمَّ أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعه أُسَيْدُ بن حُضَيْر

قال: فَلَمَّا رآه قومُه مُقبلاً، قالوا: نَحْلفُ بالله، لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فَلَمَّا وقف عليهم قال: يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيّدُنا، وأفضلُنا رأياً، وَأَيْمَنُنَا نقيبةً.

قال: فإنَّ كلامَ رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتَّى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله، ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً ومسلمةً.

ورجع سَعْدُ ومُصْعَب بن عُمَيْر إلى منزل أَسْعَد بن زُرَارَة.

فأقام مصعب عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتَّى لم تبق دار من دُور الأَنْصَار إلا وفيها رجالٌ ونساءٌ مسلمون.

ثمرات الدعوة المباركة:

لقد رأينا كيف اختار الرسول ﷺ مصعباً لفتح قلوب وديار أهل المدينة بالإسلام، وكيف نجح رضي الله عنه أيّما نجاح في هذه المهمة، وظهرت آثار الدعوة المباركة في عام واحد، حتى لم يبق بيت إلا ودخله الإسلام.

ومن ثمرات هذه الدعوة المباركة أن أَسْلَمَ على يديه أشرافُ المدينة، واستجاب لله وللرسول كرامُهم، وصار لكل مَنْ أَسْلَمَ منهم - في تاريخ الإسلام - شأنٌ أيُّ شأن.

* أَسْلَمَ «أُسَيْدُ بن حُضَيْر» وكان من النُّقباء، وكان والدُه رئيس الأوس يوم بُعاث، وقد قُتِلَ يومئذ.

وكان ابنُه أُسَيْدُ شريفاً في الجاهلية وفي الإسلام، وكان يكتب بالعربية، ويُحسن العَوْم والرَّمي، وكانوا - في الجاهلية - يُسَمُّون مَنْ كانت فيه هذه الخصال «الكامل»

أَسْلَمَ أُسَيْدُ بن حُضَيْر قبل إسلام «سَعْد بن مُعَاذ» بساعة.

وشهد بيعة العقبة الأخيرة مع السبعين، ولم يشهد بدراً.

كما شهد أُحُداً، وَجُرِحَ - يومئذ - سبع جراحات، وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناسُ.

وشهد الخندق والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ.

وتُوفيَ في شعبان سنة عشرين.

عن أَنَس رضي الله عنه قال: «كان أُسَيْدُ بن حُضَيْر وَعَبَّاد بْن بِشْر عِنْدَ رَسُول اللَّه ﷺ فِي لَيْلَة ظَلْمَاءَ حِنْدِس(١) فتحدثا عنده، حتَّى إذا خَرَجَا أَضَاءَتْ لهما عَصَا أَحَدِهِمَا، فَكَانَا يَمْشِيَانِ فِي ضَوْئِهَا»(٢).

(١) حندس: أي شديدة الظُلمة.

(٢) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم١٣٣٦٧، صحيح ابن حبان ٣٧٨/٥، حديث رقم ٢٠٣٢، المستدرك على الصحيحين ٣٢٦/٣، حديث رقم ٥٢٦١، الاستيعاب ٨٠٢/٢، الطبقات الكبرى ٦٠٦/٣.

وأخرج البخاريُّ في باب مناقب أُسَيْد بن حُضَيْر وعبَّاد بن بشر – رضي الله عنهما – عن قتادة عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه:

«أَنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، حتَّى تَفَرَّقَا، فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا»(١).

* وأَسْلَمَ «سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ» على يد مُصْعَب بن عُمَيْر، فأَسْلَمَ بإسلامه بنو عبدالأشْهَل، وهي أول دار أسلمت من الأَنْصَار.

وقد شهد سعد بدراً وأُحُداً، وثَبَتَ مع النبي ﷺ يومئذ.

ورمي يَوْمَ الخندق، ثُمَّ انفجر كَلْمُهُ(٢) بعد ذلك.

فمات في شوال سنة خمس من الهجرة وهو ابن سبع وثلاثين سنة

وصلى عليه رسول الله ﷺ، ودُفِنَ بالبقيع.

*****

لقد أَسْلَمَ أُسَيْدُ بن حُضَيْر، وسَعْد بن مُعَاذ على يد مُصْعَب بن عُمَيْر، المقرئ الذي أوفده الرسول ﷺ إلى المَدينَة؛ ليُعلِّم الإسلام، ويُقرئ القرآن.

وقد رأينا منهما ومن غيرهما عَجَباً بعد الإسلام.

ولْنَسْتَمع إلى ما جاء في السنة الصحيحة عنهما؛ ليكون لنا فيمَنْ صدقَ الله ورسولَه أُسْوَةٌ وقُدْوَةٌ:

روى البخاريُّ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ:

«بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ(٣) الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ

(١) البخاري – كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٢١ . (٢) كَلْمُهُ: أي جراحه.
(٣) يقال: جالَ يجُولُ، إذا دارَ.

فَانْصَرَفَ - وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا - فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ[١] فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:

اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ

قَالَ: أَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، وَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا.

قَالَ: وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟

قَالَ: لاَ.

قَالَ: تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»[٢].

وروى مسلم عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ[٣] إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا

قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ[٤] عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا.

قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ.

---

(١) الظُّلَّة: الشيء يُستَتر به من الحرِّ والبرد.
(٢) البخاري - كتاب فضائل القرآن.
(٣) المربد: موقف الإبل.
(٤) السُّرُج: المصابيح الزاهرة.

قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ.

قَالَ فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ.

قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الجَوِّ حتَّى مَا أَرَاهَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ المَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ، مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ»(١).

*****

تلك قراءةُ القرآن وهذه فضائله ونزول السكينة والملائكة عند قراءته

فماذا عن ابن حَضَيْرٍ الذي قال له الرسول ﷺ: «اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ»؟

وفي رواية «اقرأ أبا عتيك»(٢) وهي كُنية أُسَيْدٍ.

أي: كان ينبغي أن تستمرَ على قراءتك؛ لتستمر لك البركة بنزول الملائكة واستماعها للقرآن.

وقد فهم ابنُ حُضَيْر ذلك، فأجاب بعُذره في قَطْع القراءة، وهو قوله: «خَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى» أي: خشيتُ إن استمريتُ في القراءة أن تطأ الفرسُ ابني.

لقد أخبر أُسَيْد بن حُضَيْر بما رأى وبما وقع منه من قَطْع القراءة؛ خشيةً على ابنه يحيى، فأعلمه الرسول ﷺ بقوله له:

---

(١) مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١٣٢٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ١/٧٤٠، حديث رقم ٢٠٣٤، الترغيب والترهيب ٢/٢٤٢، فتح الباري ٩/٦٤.

«تِلْكَ المَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ».

وفي رواية البخاري: «وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى عِنْهُمْ».

وفي ذلك دلالة على جواز رؤية آحاد الأُمَّة للملائكة، كما قال الإمام النووي:

«في الحديث جواز رؤية آحاد الأُمَّة للملائكة»[1] كذا أطْلَقَ وهو صحيح كما أضاف الإمام ابن حجر العسقلاني قائلاً:

«لكنَّ الذي يظهر التقييد بالصالح – مثلاً – والحَسَن الصوت»[2].

فابن حجر يميل إلى التقييد، وقد كان أُسَيْد حَسَن الصوت، فقد جاء في رواية يحيى بن أيوب عن يزيد بن الهاد: «اقرأ أُسَيْد، فقد أُوتيتَ من مزامير آل داود» فقول رسول الله ﷺ له: «وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى عِنْهُمْ» مختص به لصلاحه وحُسْن صوته.

هذا ما يُفهَم من كلام الإمام ابن حجر في شرح صحيح البخاري، حيث قال:

«فالذي في الرواية إنما نشأ عن قراءة خاصة من سورة خاصة، بصفة خاصة، ويُحتمل من الخصوصية ما لم يُذكَر، وإلاَّ لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكل قارئ، وقد أشار في آخر الحديث بقوله: «ما يتوارَى منهم» إلى أن الملائكة – لاستغراقهم في السماع – كانوا يستمرون على عدم الاختفاء الذي هو من شأنهم، وفيه مَنْقَبَةٌ لأُسَيد ابن حُضَيْرٍ، وفَضْلُ قراءة سورة البقرة في صلاة الليل، وفَضْلُ الخشوع في الصلاة، وأنَّ التشاغل بشيء من أمور الدنيا – ولو كان من المباح – قد يُفَوِّت الخيرَ الكثير، فكيف لو كان بغير المباح. أ. هـ»[3].

*****

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ٨٢/٦.
(٢) فتح الباري: ٦٤/٩.
(٣) المرجع السابق نفسه.

ذاك ما كان من أُسَيْد بن حُضَيْر بعد إسلامه على يد المقرئ مُصْعَب بن عُمَيْر الذي أرسله الرسول ﷺ إلى المَدينَة قبل هجرته إليها ليُعلِّم الإسلام، ويُقرئ القرآن، فأَسْلَمَ على يديه أُسَيْد بن حُضَيْر.

كما أَسْلَمَ - بعده بساعة - الصحابيُّ الجليلُ سَعْدُ بن مُعَاذ، وقد كان له شأنه في وقائع المَدينَة، وله فضله في إسلامه وبعد إسلامه، مما سنراه بعد في وقائع وأحداث، يدعونا إلى معرفتها والحرص على تدبرها ما صَحَّ من الحديث من أخبار الرسول ﷺ عن سعد بن معاذ وما صار إليه من حُسْن عاقبة وجزاء.

روى البخاري ومسلم عَنْ جَابِر بن عبدالله - رضي الله عنهما -: قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ»(١).

زاد البخاري: «فَقَالَ رَجُلٌ لِجَابِرٍ: إِنَّ الْبَرَاءَ يَقُولُ: اهْتَزَّ السَّرِيرُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ(٢) ضَغَائِنُ. سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ»(٣).

وفي رواية لمسلم قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَجَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ -: اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»(٤).

وفي [جامع الأصول] لابن الأثير: «اهتزاز العرش: كنايةٌ عن ارتياحه بروحه حين صُعِدَ به؛ لكرامته على ربِّه، وكلُّ مَنْ خَفَّ لأمرٍ وارتاحَ له فقد اهتزَّ له والمعنى: فرحَ أهلُ العرش بقُدومه على الله لما رأوه من منزلته وكرامته وفضله».

وروى الترمذي بإسناد صحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال:

(١) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥١٩.
(٢) الحَيَّيْن: أي الأوس والخزرج.
(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥١٩.
(٤) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥١١.

obeikandi.com

«لَمَّا حُمِلَتْ جَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ: مَا أَخَفَّ جَنَازَتَهُ، وَذَلِكَ لِحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ الْمَلائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ»(١).

بيعة العقبة الثانية:

رجع مُصْعَبَ بن عُمير إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجَّاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق(٢) حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنَّصْر لنبيِّه، وإعزاز الإسلام وأهله.

قال كعبُ بن مالك رضي الله عنه:

«خَرَجْنَا إِلَى الحَجِّ، وَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الحَجِّ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، أَبُو جَابِرٍ، سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا.

وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ، وَقُلْنَا لَهُ:

يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا.

ثُمَّ دَعَوْنَاه إِلَى الإِسلام، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّانا العقبة

قال: فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا.

قَالَ: فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا(٣).

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣/٢٢٨، حديث رقم ٤٩٢٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٧٨٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أيام التشريق: هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، كانوا يُشرِّقون فيها لحمَ الأضاحي للشمس.

(٣) القَطا: طائر معروف سُمِّي به لثقل مشيه.

حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنا:

نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ.

قال: فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ - يَوْمَئِذٍ - عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقُ لَهُ.

فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ فَقَالَ:

يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ - قَالَ: وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا -: إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ.

وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ.

وإِنَّهُ قد أَبَى إلاَّ الانْحِيازَ إليْكُم واللُّحُوقَ بكم

فَإِنْ كُنتم تَرَوْنَ أنَّكم وافُونَ لهُ بما دَعَوْتُمُوه إليه ومانعُوه ممَّا خَالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك.

وإن كنتم تَرَوْن أنَّكم مُسلمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمنَ الآن فدَعُوه؛ فإنَّه فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِه وبَلَدِهِ.

فَقُلْنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ. فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلاَ القرآن وَدَعَا إِلَى اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِي الإِسلامِ، ثُمَّ قَالَ:

«أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ

فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ. وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ(١) وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ - وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ، حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعْنِي اليهود - فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ(٢) أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ.

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا؛ يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلاثَةٌ مِنَ الأَوْسِ(٣).

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة: أن القوم لَمَّا اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِي، أخو بني سالم ابن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تُبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

---

(١) الحَلْقة: اسم لجُملة السِّلاح والدُّروع وما أشبهها، وهو كناية عن المهارة في الحروب.

(٢) الهدم بإسكان الدال وفتحها: إهدار الدم، أي إن طلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أُهدر دمكم فقد أُهدر دمي، والهدم بالتحريك: القبر والمنزل، أي أُقبر حيث تقبرون، وأنزل حيث تنزلون.

(٣) نقباء الخزرج السبعة هم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت. وأما نقباء الأوس فهم: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن المنذر. قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعة.

قال: إنَّكم تُبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس! فإن كنتم تَرَوْن أنكم إذا نَهَكَتْ أموالَكم مُصيبةٌ، وأشرافَكم قَتْلاً أسْلَمْتُموه، فمنَ الآن، فهو - والله - إن فعلتم خِزيُ الدنيا والآخرة.

وإنْ كنتم تَرَوْن أنَّكم وافُون له بما دَعَوْتُموه إليه - على نهْكة الأموال، وقَتْل الأشراف -، فخذوه، فهو - والله - خيرُ الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنَّا نأخذه على مُصيبة الأموال وقَتْل الأشراف.

فما لنا بذلك يا رسول الله إنْ نحن وفَّيْنَا؟

قال: الجنَّةُ.

قالوا: ابسطْ يَدَك، فبسط يده فبايعوه.

ورُوي عن كعب بن مالك قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراءُ بن مَعْرُور، ثُمَّ بايع بعد القومُ.

وصَرَخَ الشيطانُ على العقبة بأنْفَذِ صوتٍ سُمِع:

يا أهلَ الجباجب[1] هل لكم في مُذَمَّمٍ[2] والصُّبَاةُ[3] معه قد اجتمعوا على حربكم؟

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ العقبة[4] هذا ابنُ أُزَيْب، أمَا والله يا عَدُوَّ الله لأتفرَّغَنَّ لك».

ثم أمرهم أن يَنْفَضُّو إلى رحالهم، فلَمَّا أصبح القومُ، عَدَتْ عليهم جِلَّةُ قريش وأشرافُهم، حتَّى دخلوا شِعَب الأنْصَار، فقالوا:

---

(١) الجباجب: منازل منى.

(٢) المذمم: المذموم.

(٣) الصباةُ: جمع صابئ، وهو الخارج من دين قومه المفارق له.

(٤) أزب العقبة: اسم شيطان.

يا معشر الخزرج، إنَّه بَلَغَنَا أنَّكم لقيتم صَاحِبَنَا البارحةَ، وواعدّتموه أنْ تُبايعوه على حربنا. وأيْمُ الله، ما حيٌّ من العرب أبغضَ إلينا من أن يَنْشبَ(١) بيننا وبينه الحرب منكم.

فانْبَعَثَ مَنْ كان هناك من الخزرج من المشركين، يحلفون لهم بالله: ما كان هذا وما علمنا.

وجعل عبدُ الله بن أبي بن سلول يقول: هذا باطل. وما كان هذا، وما كان قومي لِيَفْتَاتُوا عَلَيَّ مثلَ هذا(٢) لو كنتُ بيثرب ما صنع قومي هذا حتَّى يُؤامِروني.

فرجعتْ قريشُ مِنْ عندهم، ورَحَلَ البَراءُ بن مَعْرُور، فتَقَدَّم إلى بَطْن يأجج(٣) وتلاحق أصحابُه من المسلمين.

وتَطَلَّبتهم قريشُ، فأدركوا سعدَ بنَ عبادة، فربطوا يديه إلى عُنُقِه بِنَسْع(٤) رحله، وجعلوا يَضْربونَه، ويجرُّونه، ويجذبونَه بِجُمَّته(٥) حتَّى أدخلوه مكة

فجاء مطعمُ بن عَدي، والحارثُ بن حرب بن أُميَّة، فخَلَّصَاهُ من أيديهم، وتشاورت الأَنْصَار - حين فَقَدُوه - أنْ يَكِرُّوا إليه، فإذا سَعْدٌ قد طلع عليهم، فوصل القومُ جميعًا إلى المدينة.

قال كعب: ثُمَّ قال رسولُ الله ﷺ: ارفَضُّوا(٦) إلى رحالكم.

قال: فقال له العبَّاس بنُ عُبَادة بن نَضْلةٍ: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لَنَميلَنَّ على أهل مِنىً(٧) غداً بأسيافنا؟

(١) يُقال: نَشِبَت الحرب أي اشتبكت.
(٢) يُقال: افتَاتَ عليه إذا انْفَرَدَ برأيه دونه في التصرف فيه.
(٣) بطن يأجج: علم مرتجل لاسم مكان من مكة على ثمانية أميال.
(٤) النِّسعة: سَيرٌ مَضفور يُجعل زماما للبعير وغيره.
(٥) الجُمَّةُ: مُجْتَمَعُ شعر الرأس، والجُمَّة من شعر الرأس: ما سَقَطَ على المَنْكِبَيْن.
(٦) ارفَضُّوا: أي تفرقوا.
(٧) مِنىً: بليدة على فرسخ من مكة طولها ميلان في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم، سُمي بذلك لما يُمنَى به من الدماء، أي يراق، وقيل: لأن آدم (تمنى فيها الجنة.

قال: فقال رسول الله ﷺ: لم نُؤمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم

قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنِمْنَا عليها حتَّى أصبَحْنا.

وكان رسولُ الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يُؤذَن له في الحرب، ولم تُحلَّل له الدماء، إنما يُؤمَر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل.

وكانت قريش قد اضطهدت من اتَّبعه من المهاجرين حتَّى فَتَنُوهم عن دينهم، ونَفَوْهم من بلادهم.

فهم من بين مفتُون في دينه، ومن بين مُعَذَّب في أيديهم، ومن بين هارب في البلاد فراراً منهم.

منهم مَنْ بأرض الحبشة، ومنهم مَنْ بالمَدينَة، وفي كُلِّ وَجْه.

فَلَمَّا عَتَتْ قريشُ على الله عز وجل وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذَّبوا نبيه ﷺ وعذَّبوا مَنْ آمنَ به، أذن اللهُ عز وجل لرسوله ﷺ في القتال، والانتصار ممن ظلمهم وبَغى عليهم.

فكانت أول آية أُنزلت في إذْنه له في الحرب، وإحلاله الدماء والقتال لمَنْ بُغيَ عليهم قولُ الله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

(١) الحج: ٣٩ - ٤١.

أي: أنِّي إنما أحلَلْتُ لهم القتال لأنهم ظُلمُوا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا وانتصروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، يعني النبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين.

إذنه ﷺ لمسلمي مكة بالهجرة:

قال ابنُ إسحاق:

فَلَمَّا أذن الله لرسوله ﷺ في الحرب، وبايعه هذا الحيُّ من الأَنْصَار على الإسلام والنُصْرةِ له ولِمَنْ اتبعَهُ وأوى إليهم من المسلمين، أمَرَ رسولُ الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومَنْ معه بمكة من المسلمين، بالهجرة إلى المَدينَة، واللُّحوق بإخوانهم من الأَنْصَار.

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»

فخرجوا أَرْسَالاً وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّهُ في الخروج من مكة، والهجرة إلى المَدينَة.

*** هجرة أبي سَلَمَة وزوجه وحديثها عمَّا لقيه:**

كان أول من هاجر إلى المَدينَة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم، أبو سَلَمَة بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم، واسمه عبدالله.

هاجر إلى المَدينَة قبل بيعة أصحاب العقبة بسَنَةٍ.

وكان قد قَدِمَ على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فَلَمَّا آذته قريشُ، وبلَغَه إسلامُ من أَسْلَمَ من الأَنْصَار، خرج إلى المَدينَة مُهاجراً.

تقول أُمُّ سَلَمَةُ زوجُ النبي ﷺ:

لمَّا أجمع أبو سَلَمَة الخروج إلى المَدينَة، رَحَلَ لي بعيره، ثُمَّ حملني عليه، وحمل معي ابني سَلَمَة بن أبي سَلَمَة في حِجْري، ثُمَّ خرج بي يَقُودُ بعيرَه

فَلَمَّا رأته رجالُ بنى المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، قاموا إليه فقالوا:

هذه نفسك غلبتَنا عليها، أرأيتَ صاحبتك هذه عَلاَمَ نتركك تسيرُ بها في البلاد؟!

قالت: فنزعوا خطامَ البعير من يده، فأخذوني منه.

قالت: وغضب - عند ذلك - بنو عبدالأسد، رهطُ أبي سَلَمَة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سَلَمَة بينهم حتَّى خلعوا يدَه! وانطلق به بنو عبدالأسد.

وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سَلَمَة إلى المَدينَة

قالت: فَفُرِّقَ بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنتُ أخرجُ كلَّ غَدَاةٍ، فأجلس بالأبطح[1] فما أزالُ أبكي حتَّى أُمْسِي، سنَةً أو قريباً منها

حتَّى مَرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي، أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة:

ألا تُخرجون هذه المسكينة؟ فرَّقْتُم بينها وبين زوجها وبين ولدها!

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وَرَدَّ بنو عبدالأسد إليَّ - عند ذلك - ابني.

(١) الأَبْطَحُ: مسيل واسع فيه دقاق الحصى والجمع بِطَاحُ.

قالت: فارْتَحَلْتُ بعيري، ثُمَّ أخَذْتُ ابني، فوضعتُه في حِجْري، ثُمَّ خرجتُ أُريدُ زوجي بالمَدينَة.

قالت: وما معي أحَدٌ من خَلْقِ الله، فقلتُ: أتبلَّغُ بمَنْ لقيتُ حتَّى أقْدُم على زوجي، حتَّى إذا كنتُ بالتنعيم(١) لقيتُ عثمانَ بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبدالدَّار، فقال لي:

إلي أين يا بنت أبي أُميَّة؟

قالت: فقلتُ: أريدُ زوجي بالمَدينَة.

قال: أوَمَا معك أحَدٌ؟

قالت: فقلتُ: لا والله، إلا الله، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله، ما لَكِ من مَتْرَك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوي بي، فوالله، ما صَحِبْتُ رجلاً من العرب - قَط - أرى أنه كان أكرمَ منه

كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثُمَّ استأخر عني، حتَّى إذا نزلتُ استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثُمَّ قيَّده في الشجرة، ثُمَّ تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواحُ قام إلى بعيري، فقدَّمه فرحله، ثُمَّ استأخرَ عني، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ واستويتُ علي بعيري، أتى فأخذه بخطامه، فقادَهُ حتَّى ينزل بي، حتَّى أقدمني المَدينَة ، فَلَمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُبَاء، قال:

زوجك في هذه القرية - وكان أبو سَلَمَة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله. ثُمَّ انصرف راجعاً إلى مكة.

قال: فكانت تقولُ: والله، ما أعلمُ أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سَلَمَة، وما رأيت صاحباً - قَط - كان أكرم من عثمان بن طلحة.

(١) التنعيم: موضع بمكة في الحلِّ.

* **هجرةُ عُمَر وقِصَّة عَيَّاش مَعَهُ:**

وخرج عمرُ بن الخطاب، وعيَّاش بن أبي ربيعة الأنْصَاري حتَّى قدما المَدينَة

قال ابن إسحاق: حدثني نافع مولى عبدالله بن عمر، عن عبدالله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب قال:

اتَّعَدتُ(١) - لَمَّا أردنا الهجرة إلى المَدينَة - أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام ابن العاص بن وائل السهمي التناضب(٢) وقلنا:

أيُّنَا لم يُصبح عندها فقَدْ حُبِسَ، فَلْيَمْض صاحبَاه.

قال: فأصبحتُ أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبِسَ عنَّا هشامُ، وفُتِنَ فَافتُتَنَ.

فَلَمَّا قدمنا المدينةَ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُبَاء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارثُ بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمِّهمَا وأخاهما لأُمّهما - حتَّى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلَّماه وقالاَ:

«إن أُمَّك قد نَذَرَت أنْ لا يمسَّ رأسَهَا مُشْطٌ، ولا تستَظل من شمس حتَّى تراك»

فَرَقَّ لها، فقلتُ له - والقائل هو عمر بن الخطاب -:

يا عيَّاش، إنه - والله - إن يريدك القومُ إلا لِيَفْتنُوك عن دينك، فاحْذَرْهُم؛ فوالله لو قد آذى أُمَّكَ القَملُ لامتَشَطَتْ، ولو قَدْ اشتَدَّ عليها حَرُّ مكة لاستَظَلَّتْ.

---

(١) اتَّعَدتُ: أي تواعدتُ.

(٢) التناضب: اسم موضع.

قال: فقال: أَبِرُّ قَسَمَ أُمِّي، ولي هنالك مالٌ فآخُذه.

قال: فقلتُ: والله، إنك لتعلم أني لَمِنْ أكثر قريش مالاً، فَلَكَ نصف مالي، ولا تذهب معهما.

قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما.

قال: فَلَمَّا أبي إلا ذلك قلتُ له:

أمَا إذْ قد فعلتَ ما فعلتَ، فَخُذْ ناقتي هذه؛ فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذَلُولٌ، فالزم ظهرَها، فإن رَابَكَ من القوم رَيْبٌ فانْجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتَّى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل:

يا ابن أخي، والله لقد استَغْلَظْتُ بعيري هذا، أفلا تُعقبني على ناقتك هذه؟

قال: بلى.

قال: فأناخ وأناخا؛ ليتحوَّل عليها، فَلَمَّا استووا بالأرض عَدَوْا عليه، فأَوْثَقَاه، ورَبَطَاه، ثُمَّ دخلا به مكة نهاراً وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

*****

لم تكن الهجرةُ - إذن - أمراً سهلاً لكثير ممَنْ حيل بينهم وبينها؛ فقد رأينا كيف هاجَرَ أبو سَلَمَة إلى المَدينَة المُنَوَّرَة، وكيف حيلَ بينه وبين زوجه وابنه، وكيف حَبَسَ بنو المغيرة أمَّ سَلَمَة سَنَة أو قريباً، وكيف لحقت بزوجها بعد ذلك.

ورأيْنَا ما فُعِلَ بعيَّاش بن أبي ربيعة وما نالَه من أذى أقربائه.

ومُفارقةُ الإنسان لوطنه وإخراجه منه - بغير حَقٍّ - أمْرٌ لا تُطيقه النفوسُ، ولا يحتمله المخلوقُ الذي جُبِلَ على حُبِّ وطنه وإيثاره.

فـإذا أُرغمَ على الخـروج منـه، وجُـرِّدَ من كُلِّ مـا يملك من مـال أو مـتـاع، وحُورِبَ كلُّ من يُعينه أو يقترب من معاونته.

فإنَّ الأمر - والحالةُ هذه - قد خَلُصَ لله، ولم يكن هناك رُكُونٌ إلى أَحَدٍ سُواه ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[1].

وكذلك كان حال المهاجرين الذين قال الله فيهم:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2].

إنَّ صدْق الإيمان بالله وبالرسول هو الذي جعل كلَّ تضحية تَهُونُ في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وجعل العقبات - مهما بَلَغَتْ - لا تحُولُ، وكَمْ لله من مِنَّةٍ في طَي المَكَاره.

ومَنْ تدبر العواقب أيقنَ - يقيناً لا شكَ فيه - أنَّ الحقَّ لا يُمكن أن يُهْزَم أبداً.

فطُوبَى لَمَن استمسك بالحق، فصابَر وصَبَر، حتَّى يفوز بحُسْن عاقبة وأكرم مصير.

تتابُع المهاجرين:

قال ابن إسحاق:

كان أول مَنْ قَدِمَ المَدينَة من المهاجرين - بعد أبي سَلَمَة - عامرُ بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، ثُمَّ عبدالله بن جحش.

* فكان منزل أبي سَلَمَة، وعامر بن ربيعة، وعبدالله بن جحش، وأخيه أبي أحمد بن جحش، كان منزلُهم على مُبَشِّر بن عبدالمنذر بقُبَاء، في بنى عمرو ابن عوف.

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) الحشر: ٨.

ثم تتابع المهاجرون، فاستقبلتهم قلوبُ الأنْصَار في أُلْفَةٍ ومَحَبَّة لم يَسْبق لها نظيرٌ

* فنزل عمرُ بن الخطاب - حين قدم المدينة، ومَنْ لحق به من أهله، وقومه وأخوه زيد بن الخطاب - نزلوا في بني عمرو بن عوف بقُبَاء.

* ونزل طلحةُ بن عبيد الله بن عثمان على أَسْعَد بن زُرَارَة، أخي بني النجار.

* ولم يستطع صُهَيْب أن يَفْلتَ من حصار قريش إلاَّ بعد أن أظْهَرَ لهم ما أرادُوه من التخلِّي عن كلِّ ما يملك حتَّى يهاجر، فكانت هجرتُه في سبيل الله أحبَّ إليه من ماله.

قال ابنُ هشام:

ذُكر لي عن أبي عثمان النَّهْدي أنه قال: بلغني أن صُهَيْباً - حين أرادَ الهجرة - قال له كُفَّارُ قريش:

أتيتنا صُعْلُوكاً حقيراً، فكَثُرَ مالُك عندنا، وبلَغْتَ الذي بَلَغْتَ، ثُمَّ تُريدُ أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صُهَيْب: أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي، أتُخَلُّونَ سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإنِّي جَعَلْتُ لكم مالي.

قال: فبلغَ ذلكَ رسولَ الله ﷺ فقال: «رَبِحَ صُهيب، رَبِحَ صُهيب»[(١)].

* ونزل حمزةُ بن عبدالمطلب، وزيدُ بن حارثة على كلثوم بن هدْم، أخي بني عمرو بن عوف بقُبَاء، ويُقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة، ويُقال: بل نزل حمزةُ بن عبدالمطلب على أَسْعَد بن زُرَارَة، أخي بني النجار. كلُّ ذلك يُقال.

---

(١) صحيح ابن حبان: ٥٥٧/١٥، حديث رقم ٧٠٨٢، سير أعلام النبلاء ٢٢/٢.

* ونزل عبيدةُ بنُ الحارث بن عبدالمطلب، وأخوه الطفيلُ بن الحارث، والحصين ابن الحارث، ومسطَحُ بن أُثَاثَة بن عبَّاد بن المطلب، وسويبطُ بن سعد بن حريملة أخو بني عبدالدَّار، وطليبُ بن عمير أخو بني عبد بن قصي، وخبَّابُ مولي عتبة بن غزوان، علي عبدالله بن سَلَمَة، أخي بَلْعجلان بقُبَاء.

* ونزل عبدُ الرحمن بن عوف - في رجال من المهاجرين - على سعد بن الربيع أخي بلحارث بن الخزرج، في دار بلحارث بن الخزرج.

* ونزل الزبيرُ بن العوَّام، وأبو سبرة ابن أبي رُهْم بن عبدالعُزَّى على مُنْذر بن محمد بن عقبة بن أُحيحه بن الجلاح بالعصبة.

* ونزل مصعبُ بن عمير بن هاشم، أخو بني عبدالدَّار على سعد بن مُعَاذ بن النعمان أخي بني عبدالأشهل في دار عبدالأشهل.

* ونزل عثمانُ بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر، أخي حسَّان بن ثابت، في دار بني النجار، فلذلك كان حسَّانُ يُحبُّ عثمان، ويَبْكيه حين قُتلَ.

ومَنْ تابع كيف استقبل الأَنْصَار مَنْ هاجرَ إليهم من المهاجرين، لم يعجَب حين يقرأ: نزل فلانٌ عند فلان، وقيل: عند فلان.

لم يَعجَب من ذلك كلِّه؛ لأن التنافسَ بين الأَنْصَار في الترحيب بالمهاجرين قد بلغ مبلَغه في الحُبِّ والمواساة والإيثار، حتَّى لَيَصْعُبُ على الباحث أن يعرف عند مَنْ نزل فلانٌ أو فُلانٌ.

كلٌّ يريد أن ينال شَرَفَ استقبال المهاجر، وإيثاره وإكرامه.

وسنرى كيف كانت المؤاخاةُ بعد قُدوم رسول الله ﷺ وهَدْيه في المؤاخاة بينهم، مما جعلهم أُسوةً وقُدوةً لَمنْ جاء بعدهم.

الفرج بعد الشدة:

لقد قلتُ من قبل: إن الهجرة لم تكن أمراً سهلاً لكثير ممن حيلَ بينهم وبينها، ولكنَّ الله يأبى إلاَّ أن يجعل للمتقين من كلِّ ضيقٍ فرجاً، ومن كلِّ كَرْبٍ مَخرجاً.

* كتاب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى هشام بن العاص:

قال ابنُ إسحاق: وحدثني نافع، عن عبدالله بن عمر، عن عمر في حديثه قال: كنا نقولُ: ما الله بقَابل ممَّن افتُتنَ صَرْفاً ولا عَدْلاً ولا تَوْبة؛ قوم عرفوا الله ثُمَّ رجعوا إلى الكفر لبَلاءٍ أصابَهُم!

قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فَلَمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أنْزَلَ الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1].

قال عمرُ بن الخطاب: فكَتَبْتُها بيدي في صحيفة، وبَعَثْتُ بها إلى هشام بن العاص.

قال: فقالَ هشام بن العاص: فَلَمَّا أتَتْني جَعَلْتُ أقرؤهَا بذي طُوَى[2] أُصَعِّدُ بها فيه، وأُصوب ولا أفهمها، حتَّى قلتُ: اللهم فَهِّمنيها.

قال: فألقى الله تعالى في قلبي إنَّما أُنزلَتْ فينا وفيما كُنَّا نقُولُ في أنفسنا ويُقَالُ فينا.

قالَ: فرجعتُ إلى بعيري، فجلستُ عليه، فلحَقْتُ برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.

هذا، ومَنْ صَدَق الله، وأخْلَصَ له لم يُحبَط سَعيُهُ، ولم يَبْطُل عملُهُ، فهؤلاء الذين حُبسوا بمكة قد علم الله صِدْقَ قلوبهم، وإنابتهم إلى ربِّهم، وأنهم

(١) الزمر: ٥٣ - ٥٥.
(٢) ذو طوى: موضع بمكة.

يتطلعون أنْ يلحقوا بإخوانهم، وأن يصلوا إلى المدينة المُنَوَّرَة مهاجرين في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

*** خروج الوليد بن الوليد في أمر عياش وهشام:**

قال ابنُ هشام:

حدثني مَنْ أثق به أنَّ رسول الله ﷺ قال - وهو بالمدينة -: مَنْ لي بعياش ابن أبي ربيعة وهشام بن العاص؟

فقال الوليدُ بن الوليد بن المغيرة: أنَا لك - يا رسول الله - بهما.

فخرج إلى مكة فقدمها مُستَخْفياً، فلقي امرأةً تحمل طعاماً، فقال لها:

أين تُريدين يا أَمَةَ الله؟

قالتْ: أُريدُ هذَيْن المحبُوسَيْن - تَعْنيهما - فتَبعَها حتَّى عرف موضعَهُما - وكانا محبوسَيْن في بيْت لا سَقْفَ له.

فَلَمَّا أمسى تَسَوَّرَ عليهما[١] ثُمَّ أخذَ مَرْوَةً[٢] فوضعها تحت قيديهما، ثُمَّ ضربهما بسيفه، فقطعهما، فكان يُقال لسيفه «ذُو المَرْوَة» لذلك.

ثم حملهما على بعيره، وسَاق بهما، فعَثُر، فَدَميَتْ إصبُعه، فقال:

هَلْ أَنْتَ إلاَ إصْبُعٌ دَميت   وفي سبيل الله مَا لَقيت

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

وهكذا نرى طيبة الطيبة تستقبل مَنْ أُعدُّوا لها، وصاروا - بإيمانهم - أهلاً لتَبَوئها، ونرى أولئك المهاجرين الصادقين ينزلون عند إخوانهم الأنْصَار مُعزَّزين مُكرَّمين.

*****

(١) يُقالُ: تَسَوَّرَ الحائط، أي تسلَّقه.

(٢) المَرْوة: حَجَرٌ أبيض رقيق.